

# قراءة في رواية جزيرة الذكور

انطلاقاً من معرفتي المتواضعة ، عادة ما تقوم الرواية على ترابط الأحداث وتسلسلها ، بحيث تنقل الشخصيات من حالة إلى حالة أخرى تعتبر الأولى نقطة البداية والثانية نقطة النهاية، يتابع القارئ عبرها عملية الانتقال من خلال الأحداث المتتالية التي تصنعها والتي تشكل الخيط الذي يرشده في قراءته ويشده إلى النص، غير أنني عند قراءتي للرواية المسافرة "جزيرة الذكور" لعزیز بنحدوش عبر الإهداء الجميل للأخ لحسن الياسميني، وجدت الأمر يختلف، فالتشويق وإثارة الاهتمام بواسطة تسلسل الأحداث عنصرين شبه مفقودين ، و علي أن أتخلى عن طريقي المعهودة في قراءة الرواية ، فالأمر يتطلب هنا درجة معينة من التماسك والترابط والتركيز، لأجدي في الأخير أتولى جمع وترتيب النص، كما هي الحال في نماذج من السرد الحديث كحديث الجثة لمحمد أسليم على سبيل المثال لا الحصر.

الواقع إن اول ما يسترعي الانتباه هو لوحة الغلاف التي تبرز تشققات الأرض بفعل غياب المطر ليتمد التخوم العليا للوحة مشهد لغروب الشمس المهيب في الأفق – قرصي الشمس في السماء والقمة المحادية للجبل – وفي علاقة اللوحة بالنص نقرأ المقطع الدلالي التالي:

" رمى علي بذور الرحمة للريح واعتذر للتراب كثيراً... وضع يده بين تجاعيد الأرض – رفع رأسه للسماء طلب الغيث للعنزتين والأرض المسلوبة وروح الشبحين أيور وتودرت، لكن غضب الإله كان قويا، تشققت الأرض أكثر ولم تعد رحيمة بالبهايم والناس كما كانت (ص106).

ويقول: " والمجتمع فاسد فأصلحوه من أجل الله والوطن وهذا التراب البني الجاف الذي ينتظر المطر -"إنه الجفاف صفرة ممتدة في جميع الاتجاهات يلفت الإنتباه ...". (ص 37)

إلى جانب اللوحة هناك عنوان الرواية " جزيرة الذكور" الذي يحدد من الوهلة الأولى مفاتيح عملية الاستيعاب التي يفترض أن ترويه الرواية.

فديباجة العنوان له دلالة إيحائية لهيمنة الشخصيات الذكورية على امتداد النص الروائي، وتأسيساً على هذه الملاحظة يمكن القول ان إحياءات العنوان تتوافق جميعها مع سياقات السرد النابعة من المنطقة الضاربة في عمق الإنتماءات الاجتماعية والثقافية ومن ما هو معاش.

" أدرك ادريس انه لم ير نساء في جزيرة الذكور هذه اللهم بعض الموظفات اللاوتي لا يختلفن عن الذكور كثيراً معلّمت ممرضات والقليل جدا من مسعفات الروح البشرية المتألّمة لم يكن جميلات كن فقط إناث وهذا كان كافياً لذكور الجزيرة (ص 31).

هي الأماكن إذن، أثر دال على الأمس القريب المليء بالمجد، أما الآن فهي جزيرة الذكور (ص 48)  
حل سائح إيطالي بهذه الفراغات يوماً، كانت ابنته بمعيتها، تعجبت الطفلة وقالت: *tutti mashi* كلهم  
ذكور ثم رد والدها معلقاً على تعجبها *si questa*

*Sichiami l'isola des mashi* لهذا سميت جزيرة الذكور (صفحة 49) كتبت النساء حكايتهن على  
الزراعي، رسمن مراحل الحمل وطقوس الزواج وعلاقات اجتماعية أخرى مهمة كثيراً ، ورغم كل هذا  
بقين اشباحاً يبحثن عن أجساد تتقمصها ارواحهن العارية من الحياة (ص 50).

ان عزيز بن حدوش يريد في الواقع عبر هذا النص أن يقدم أطروحة فلسفية ترمي  
إلى تحقيق تناسق بين الحكى الأدبي والتفكير العقلاني من هنا جاء صوت السارد- الراوي-  
الذي يمتزج غالباً بصوت البطل (ادريس) بل ويتحد معه فما يرويهِ السارد يتحول إلى ما  
يدور في ذهن البطل وفي ذاكرته من صور، إلى ما يخاطب به نفسه من حديث أو ما يتقوه  
به الآخرين من كلام.

من هذه الزاوية تبدو الرواية وكأنها خليط من الأقاويل والخواطر يسيطر فيها الراوي  
سيطرة تامة على خطاب البطل الداخلي والخارجي وخطاب الشخصيات الأخرى فيسكبها  
جميعها في لغته الأدبية المميزة مسبغاً على تنوع الأحداث وتشتت الأفكار وحدة كلامية  
جامعة فهو نص سردي تتداخل فيه تشكيلة ذاكرة التخيل التفكير التأملات الاستيهامات،  
يوظف الوصف العجيب ويحرص على تكثيف اللغة المشحونة بالأفكار والحقائق مع القول  
الشعري.

مستخدماً معجم تراثي أمازيغي، وحكم فلسفية وتأملات ساخرة لكنها ذات دلالة عميقة.  
فهو نموذج للكتابة تجمع بين التفكير الفلسفي التأملي والتخيل تحكي أحلام أستاذ للمعرفة  
في مواجهة مشكلات بلده الاجتماعية والثقافية من فساد وتعصب ديني.

على مستوى النص تتم العلاقات بواسطة كلمات وعبارات وجمل وصور تتشابه  
وتتكرر في مواضع مختلفة من الرواية أو على صفحات متتالية يساعد على ترتيب وتتبع  
النص الروائي واستيعابه بعد إزالة عنصر اللبس والارتباك الذي وضع فيه الراوي القارئ.

كما أن تكرار العبارات المستمر سواء في أماكن متجاورة من النص أم في أماكن متباعدة  
منه تقيم علاقات صوتية كقصيدة شعرية ومن بين العبارات التي تتكرر بإلحاح كبير هي:

- **الفراغات** " التقينا كانت فارغة من الناس والبنات بها القليل من الحياة لكنها كانت فضاء  
للتصوف للخولة للشيخوخة او حتى للموت عندما وصل كانت المحطة فارغة فضاءات ممتدة  
بلا هوادة (ص 7).

".. حمل عدة الحياة وأحم نفسه وإياها في غرفة اجمل ما فيها انفتاحها على الفراغ كل شيء  
أمازيغي حتى النخاع.... (ص 8).

" رغم ان الفضاء ملئ بالفراغات ( ص 10 )

" انتشرت كل الأعضاء حتى ملأت الفراغات " (ص14) .

-قبله الوطن على جبينه : "بدأت رائحته تبتعد شيئاً فشيئاً ، حرارة صدره تتناقص تدريجياً، ابتعد الوطن، بكى ادريس كثيراً، لأنه بعدها احس بالعربة حل بجزيرة الذكور حاملاً كل ممتلكاته واهمها قبلة الوطن على جبينه (صفحة 7).

"وصلا الى الغرفة، لم يكن إدريس قادرا على الاختيار، ترك الأمر للغرفة التي فتحت أحضانه لكنها لم تقبله على جبينه كما فعل الوطن (ص 7) لكن هذه المرة الباب هو من ضرب ادريس كانت الضربة مقصودة، رسالة خاصة انها كانت على ناصيته، لقد أحدث جرحا داميا على الجبين الذي قبله الوطن (صفحة 9).

" وصل دار الحائمي للعلم والمعرفة، وقف امامها كان الباب مغلقا وعلم الوطن الذي قبله على جبينه يوما، يرفرف بحرارة شديدة وغريبة كذلك " (صفحة 11).

"اخرج الفلسفة من داخله واخذ ما تبقى من قبلة الوطن على جبينه" (صفحة 16).

"أعاد الأستاذ طرح السؤال ما معنى ان يكون الانسان إنسانا؟ قال ادريس، انه في مثل هذه اللحظات فقط يعرف لماذا قبله الوطن على جبينه عندما طلب منه تعريف الناس بالإنسان فيهم (صفحة 24).

فهذا التردد الكلامي لهذه العبارات التي تعود مرارا على امتداد النص كأنها شعارات ترتفع بين الحين والآخر تطبع في ذهن القارئ وترسخ في فكر البطل القضية الأساسية التي تتمحور حولها الأحاديث والاحداث.

-فالصور المادية التي يحفل بها النص تشكل عالما حسيا مترابط الأجزاء تتردد كثيرا في الرواية صور القرف ، الفراغات، الريح ، الزمن، حضر الصباح، النافذة، التشطي، البرد، الليل " انت حر في الليل أكثر من النهار (صفحة 13-14) البحر/ السواد/ البياض/ التراب/ كلها تتوافق في مدلولها فتترجم المعاناة.

"كل شيء امازيغي حتى النخاع، الناس، الأماكن والملابس حتى الأسفلت بدا امازيغيا شاحبا ونحيفا " (صفحة 8).

"...خرج ادريس من قواعد اللغة العربية ليجمع أشلاء هوية ضاعت منه على مضض هو الامازيغي في الأصل لكن الزمن والأمكنة حالا بينه وبين تعلم لغته، هويته - أحس كثيرا بالغين ثم قرر تعلم لغة الناس من الناس، إنه مستعد، فالدماغ أمازيغية واللسان عربي والقلب لم يمتلئ بالحق بعد (ص 8-9) .

هذا التامل يتجلى مباشرة ومنذ السطور الأولى للرواية: "لم يكن يوماً قادراً على تصور أو تخيل ما وصل إليه: " لا يعرف كيف وصل ولم يكن يوماً مسؤولاً عما فعل هي الظروف تصنع الإنسان وتنسج العلاقات " (صفحة الأولى).

في مثل هذه الحالة يرجع الراوي إلى ذاكرة بطله ادريس وإلى خطابه الداخلي المونولوج مع نفسه والخارجي مع الآخرين فيلاحظ القارئ منذ البداية تداخل نظام التشابكات الذي يميزه، فيكفي ان تفحص سلوك الفرد اليومي لحياة الانسان لترى إلى أي حد يؤثر هذا النظام اللاعقلاني اكثر بكثير من تأثير فكر على مواقف الفرد.

وهذا يعني أن شكل الكتابة يخضع بدوره إلى احد المفاهيم الفلسفية التي وضعها دولوز في كتابه النجود الألف Mille-Plateaux وهو مفهوم الجذُمور le-rhizome مامعنى ان نكتب بشكل جذموري؟

يعرف دولوز وغاتاري "الجذُمور" بأنه شكل من أشكال الوجود التي تبرز التعدد دون ان تشهد على المرجع او الأصل الواحد "فالجذُمور" بخلاف الشجرة ليست له وضعية او نقطة محددة وإنما يعبر عن نفسه بواسطة الخطوط العلاقات ، فليست "الجذُمور" "بداية لا نهاية ،لكن له دائماً وسطا ليس مركزا- ينمو عبره ،و من اهم خصائص "الجذُمور" أنه له مداخل متعددة و يتضمن ممرات و مسارب للانفلات .

و لعل أساس العلاقة بين مختلف النقط المتضمنة في "الجذُمور" ،أن أي نقطة يمكنها أن تربط بنقطة أخرى داخل نفس النسيج ،إستنادا الى مفهوم الكتابة عند دولوز .

سأسعى ما أمكن الى جعل هذه القراءة ذات طبيعة "جذمورية" أي جعل محاورها مفتوحة يغضها على بعض و مرتبطة فيما بينها ،دون أن يشهد هذا الترابط على تسلسل منطقي بين المحاور أو على مركز أساسي يتمحور حوله العمل .

فالازمة التي تطالع القارئ في اول النص تعاود الظهور حتى الصفحات الأخيرة مرافقة كل تجارب يستعيدها البطل او يتناولها الراوي و كأنها نشيد الامتحان العصيب الذي لا ينتهي او النغم الذي يعوض بتكراره عن فقدان التسلسل بين الاحداث، فالبطل في كل الأمكنة التي يقضي فيها أيامه أكانت غرفة في فندق أو مقهى ،في التجارب التي يمر منها تبدو له كأفخاخ نصبت له منذ خروجه إلى الدنيا ،والمشاعر التي تعتمل في نفسه عديدة، من حرمان وقهر وإحباط صور الضياع والانهيال والانحطاط والتمزق والتشتت.

يقول السارد "...مر اليوم بصعوبة كبيرة وكان عليه ان يجيب على سؤال بدا له مهما: لمانا تبدأ الحياة بطعم النار والحمم وتنتهي بصداع الرأس والغثيان الباعث على الانهيال)(ص 14).

ويضيف " مازالت رأس ادريس تؤلمه من الضرب الذي تلقاه من الابوب الصغيرة وكذلك من السم الذي سقاه إياه جوزيف بانع ماء الحياة للاموات " (ص 15).

"..إدريس الآن هنا وماء حياة جوزيف يحاول جاهدا إسعافه من البرد والطرده من التشظي ( ص 12)

" .. لا شيء مجاني يجب ان تحترق أولا كي تنبعث من رمادك كطائر الفينيق اكثر بهاء ورونقا(ص 12).

"... جوزيف اللعين هذا يحييني ينتشلي بأصابع نارية ثم يحولني حمما تائرة في كل الفراغات انا الآن أشعر بالحر وضيق المكان والكثير من الحصار (صفحة 30).

إن عوامل التفتت المشار إليها سواء في زمن الرواية ام في احداثها تعتبر دليلا على صدق النص وعفويته في ترجمته لما يفور في نفسية البطل ،ووسيلة لجعل القارئ يشارك هذا الأخير معاناته ويعيش تجربة موازية.

كما يقوم الراوي بملاحقة العناصر التي يعتبرها فاعلة ومؤثرة في شخصية إدريس وذلك بالغوص في كل ما يمت إليها بصلة، بحيث يعود إلى جذوره العائلية السحيقة (الامازيغ) ليحاول ان يرسم انطلاقا منها في المسار التاريخي خطأ يضيء ما كان مجهولا، وتتوالى المقاطع التي تؤكد وتبلور ذلك بصيغ متعددة:

"...كل شيء أمازيغي حتى النخاع، الناس، الأماكن، الملابس حتى الاسفلت بدا امازيغيا شاحبا ونحيفا (ص 8).

"...خرج إدريس من قواعد اللغة العربية ليجمع أشلاء هوية ضاعت منه على مضض هو الأمازيغي في الاصل لكن الزمن والامكنة حالا بينه وبين تعلم لغته، هويته احس كثيرا بالغبن ثم قرر تعلم لغة الناس من الناس، إنه مستعد، فالدماء امازيغية واللسان عربي، والقلب لم يمتلى بالحقد بعد... "(ص 8-9).

"...ضحك إدريس بالعربية كثيرا ولام نفسه ،هو الامازيغي في الأصل الذي لا يستطيع الضحك بلسان قومه"( ص 10).

"...اجتمعت الفلسفة واللغة العربية في منزل أمازيغي( ص 11).

"...كان جوزيف هذا امازيغيا اكثر من إدريس( ص 11 )

"...عريقة هي الدواوير والبيوث والناس هناك تاريخ وذاكرة خلف كل هذه الآثار المرسومة على الجبال والاحجار كالوشم على جبين كل إنسان ، كل شبر فيك جزيرة الذكور أثر خاص دال على غياب يرفض ان ينسي( صفحة 19)

فالنبش في التراث هو نبش في لاوعي الجماعة نبش في العاطفة الخفية في اعماقنا يجعل القارئ يستجيب للرواية لوجود علاقة ضمنية بحياته.

فهذه المقاطع لا تدل ان الرواية تعبر عن اعترافات المؤلف بقدر ما انها سبر لاغوار الحياة الإنسانية عبر تأمل فلسفي معروض بطريقة تجريدية.

لإضاءة هذا المعنى في الرؤية الإبداعية للساد يمكن تأويل المهمة التي كلفه بها الوطن على انها دعوة الى القضاء على الجهل و الشر و انحدار القيم وبناء قيم بديلة تركز على الخير والحياة والجمال .. متخذاً من "الحوار التساؤلي" بتعبير ارسطو منطلقاً للكتابة.

فمنذ بداية النص " جزيرة الذكور" يطل على القارئ طيف سقراط حيث يبدو ثاويًا في تشعباته الدلالية إذ ستظل حركته موجهة لمسار النص من بدايته الى نهايته عبر مسالك خلت تجربة " ادريس" فيقول: "بعد خمس سنوات عجاف فتح الوطن حضنه وعانق ادريس فقبله على جبينه وقال له اذهب وانشر العلم والمعرفة وعرف الناس بالناس وبانفسهم حارب الجهل كما فعل سقراط وافلاطون وابن سينا وابن رشد" ص (7).

ويضيف، "حددت القاعة رقم (5) خمسة في دار الحاتمي للعلم على انها أغورا الفلسفة لم يكن عدد التلاميذ كثيرًا، و حضور التلميذات كان محتشماً . كيف يعقل أن أرضاً بهذه الشساعة وهذا العدد الكبير من القبائل الموعلة في التاريخ، لم تثمر إلا بضع سنبلات اغلبها لا تحمل ثماراً تعجب ادريس وعرف أن مهمته صعبة وضرورية لان هناك اضطراب في علاقة الناس بالمعرفة لا يرفضونها ولا ترفضهم، لكن لا احد اقترب وقبل الآخر على جبينه واعلن البدايات ( ص 15).

"كانت اللقاءات الأولى مع تلاميذته قاسية مستفزة لقد عرف ان المعرفة تبدأ بإدراك الشخص للجهل في ذاته فبدأ يستخرج الجهل من التلاميذ يضعه أمامهم يتفحصونه ثم يدركون كم يحملون من الأوهام عن غير قصد..... بدأنا من البدايات، من أنت؟ من تكون؟ ما معنى أن يكون الإنسان إنساناً؟ ( ص 18).

"...قال ادريس: لتفلسف إذن، الفلسفة مثل ماء جوزيف تحيي في القسم وتقتل في الخارج، لان المكان مكتظ بالفراغات لا حيز فيه للحكمة التي قال عنها ابن رشد ، أنها اخت التشريعية) ص 19.

"...كتب ادريس على السبورة السؤال التالي من نكون؟ تم راح يتحرك بين الصفوف ويسأل هذا وذلك من تكون يا محمد؟ وانت يا علي؟ وأنت اسمك إيجة لكن من أنت ؟  
"....أجاب التلاميذ بغضب :أنا محمد بن علي، أنا إنسان. قال المدرس بعدها: لكن ما الإنسان بني؟

"....كتب على السبورة أنا إنسان ،مسلم ،مغربي، أما زيغي، من جزيرة الذكور ....أعاد الأستاذ طرح السؤال ما معنى أن يكون الإنسان إنساناً؟ قال ادريس إنه في مثل هذه اللحظات يعرف لماذا قبله الوطن على جبينه عند ما طلب منه تعريف الناس بالإنسان فيهم و عرف كذلك لماذا ..الأبواب الصغيرة التي لا تستوعب نور الشمس ،كلما حاول إضاءة المكان ،لن استسلم سأحب وطني و أقبل يديه الكريمتين حتى لو ضربتني كل الأبواب الصغيرة في كل العالم ،كان هذا الخطاب هو الذي يكرره ادريس كلما حاصره الجهل في جزيرة الذكور ( ص 24) .

"...الإنسان عقل و تعبير و تطبيق أو انخراط في الفعل الصادر عن الذات و المسبوق بالتفكير .. أنت فاعل بني فماذا فعلت؟ هكذا كان إدريس يحاور تلامذته ، متحركا بين بؤس الفلسفة و نعيمها حتى لا يرحل التلاميذ (ص 25)

"...أدرت جماعة القسم الإنسان فيها .. لكن إدريس ادمل الجرح مرة أخرى ، استنفر التلاميذ من جديد عندما كتب على السبورة سؤالا اخر :أتعلمون ما الكرامة ، وجه الخطاب لإيجه . هل لك كرامة؟ احمرت التلميذة خجلا ، لأنها لا تستطيع نفي الكرامة و في الوقت ذاته هي لا تعرفها صرخت: أستاذ ما الكرامة أنت؟ فرح إدريس لجرأة و قوة تلميذته فأجابها قائلا :لا يمكن أن نعرف الكرامة دون استحضار جيرانها الاحترام و الاعتراف ، أساس الكرامة هو الاحترام و الاحترام هو اعتراف بإنسانية الإنسان ، تحسين بنيتي بكرامتك عندما يتم احترامك أي الاعتراف بالخصائص التي تحددك كإنسان ، قالت إيجه :لم احترم يوما و بخصوص سؤالك لقد عرفت الكرامة و لم أجدها بداخلي و هذا إحساس مؤلم . أمسكت إيجه برأسها عرف إدريس بحب تلامذته للفلسفة تألم و توجع ..جلس بالقرب من أحد التلاميذ طمأنه و كأنه فعل بنفسه ، بعدها أعلن التأهب لمحاربة الجهل ثم قال :معا يمكن أن نعبر للضفة الأخرى أو من جزيرة الذكور هذه إلى وسع البحر، نعم ، سنواجه هذه إلى صعوبات لكن الخروج من الكهف أمر مطلوب من أجل الله و الوطن(ص25-26).

هكذا يستعيد المؤلف عبر هذه المقاطع دور "الحوار السقراطي" الذي يتولاه البطل ادريس منطلقا من الحكمة الشهيرة المنقوشة على معبد "دلفي" أعرف نفسك".

كدعوة الى معرفة العقل ،المعرفة الأكثر شمولية و موضوعية ،عبر معرفة ما هو حقيقي و أصيل في الإنسان أي معرفة الجوهر الإنساني بحد ذاته كعقل بتعبير هيغل في كتابه "فلسفة العقل " أو كما يقول كانط : "ليس هناك فلسفة نستطيع أن نتعلمها فكل ما نستطيع تعلمه هو أن نفكر فلسفيا أو كما يقول هيدغر "سقراط هو الفيلسوف الذي بدعونا الي التفكير في زماننا الذي يجعلنا نفكر أننا لم نفكر فيه حتى الآن .."

واللافت أن المؤلف في النص الروائي اختار ما أراده سقراط "أن نفكر فلسفيا فذلك يعني أولا أن نتعلم الموت .."(ص 14).

"...لكن إدريس لم يكن يعرف لماذا كان عليه الوقوف أصلا " بعد أن فارقتة حياة جوزيف أصبح إكلينيكيًا ميت .

"..لماذا تبدأ الحياة بطعم النار و الحمم و تنتهي بصداع الرأس و الغثيان الباعث على الانهيار؟"(ص 14)

...عرف أنه لكي يحيى عليه أن يموت أولا و أخيرا ... (ص 14) .

و في مقطع آخر: " فقرر إدريس أن يموت الليلة على ان يحيى غدا . (ص15).

"لم يكن ادريس أول سقراط حضر الى جزيرة الذكور لقد سبقه شخص ،أمس ترك أثرا و على ادريس حسن قراءته " (ص17).

و اقتفاء بأثر سقراط في طرح السؤال التالي كيف تتم عملية إيصال المعرفة هذه ؟و كيف لكل واحد منا أن يعلم الآخر شيئا ما ؟.

فسقراط يفرض على المعلم أن يكون شبيها بتلميذه لكي يستطيع الأخير أن يفهمه أن المعلم يجب أن يضع نفسه في موقع التلميذ فلا يشعره بالتفوق عليه لكي يكسب ثقته .

فقد سبق لسقراط "المعلم " أن إتخذ دور التلميذ بهدف الوصول الى الحقيقة ، في الحوار الذي أورده افلاطون في كتابه "محاورة مينون" حول تعريف الفضيلة

هذا الأثر الفلسفي يحاول المؤلف أن يقتفي أثره من خلال فن التساؤل الماكر الذي يقود المعلم إلى توليد التلميذ الحقيقة التي يحملها في نفسه و لكنه كان قد نسيها " **لم يكن وزير الفلسفة سقراطيا ليولد الحوار**(ص 63 .)

"...عرف أنه لكي يدرس عليه التعلم أولا معرفة الناس ثقافتهم تمثلهم للدين و للقيم و للتعليم ،العابهم و لباسهم ،طقوس الفرح و الحزن و لكن اول شيء يحتاجه هو لسان يسمح له ببلوغ عوالم مازالت تبدو مستعصية (ص 20)ثم عرف ادريس أن يدرس الفلسفة فسقراط يرفض أن يمثل دور المعلم هذا و هو يردد :كل ما يعرفه سقراط هو انه لا يعرف شيئا " و هو ما يجد له صدى في النص :

"... كانت اللقاءات الأولى مع تلامذته قاسية مستفزة لقد عرف أن المعرفة تبدأ بإدراك الشخص للجهل في ذاته ،فبدأ يستخرج الجهل من التلاميذ ، يضعه أمامهم يتفحصونه ،ثم يدركون كم يحملون من الاوهام عن غير قصد ... ص 18.

فسيرا على خطى سقراط يقوم المؤلف –البطل ادريس بشل محاوره الواثق من نفسه ،و الذي لا يعرف أبدا أن معرفته تلك ما هي سوى معرفة وهمية لا طائل من إنها الجهل الذي يجهل نفسه ،حيث يقول صفحة 90 :"**يبدأ درس ادريس لموحى بالتهديد يجب أن يحس بالمرض و الضعف "**.

كما أن هذه المهمة التي اختار المؤلف انجازها على أرض الواقع بدار الحاتمي للعلم و المعرفة أغورا، طبقا لرؤيته الخاصة كدارس للفلسفة أولا ثم كحريص على بلورة هذا المفهوم، و من منظور المعرفة والمشاهدة من خلال الإحساس بفضاعة العيش و تناقضاته كأنه عيش يطبعه دوما الفراغ و القرف و التشيء ،حيث تتكرر الجملة المفتاح على امتداد النص و هي "**قبلة الوطن على جبينه "** أو "**الجبين الذي قبله الوطن "** (ص9) **وعلم الوطن الذي قبله على جبينه يوما ،يرفرف بحرارة شديدة وغريبة كذلك لم يرى ادريس علما يرفرف بهذه الحرقة من قبل "**(ص 11).



"فتح الوطن حضنه و عانق إدريس، قبله على جبينه و قال له " اذهب و انشر العلم و المعرفة، عرف الناس بالناس و بأنفسهم، حارب الجهل كما فعل سقراط و أفلاطون و ابن سينا و ابن رشد حل بجزيرة الذكور حاملا كل ممتلكاته وأهمها قبلة الوطن على جبينه (ص 7).

وأحس إدريس بالفشل و الضياع و كان أقبح إحساس هو العجز عاد لفلسفته، بحث فيها عن قصة تشبه قصة بلده، عاد إلى الوراء كثيرا، عميقا حتى عثر على ضالته. كان الجواب مستمدا من أثينا جوهرة البحر الأبيض المتوسط. (ص 33).

نفس أثر سقراط الذي كان يردد دائما بأنه تلقى مهمته هذه بتثقيف معاصريه من قبل الالهة نفسها .

"حيث شبه نفسه " بالذبابة " توقظكم من نومكم لكي تفكروا ، و هي تؤنبكم ، و تجعل كل واحد منكم يتساءل و يفكر أنتم الذين تنشرون في جميع الأصقاع" (المرجع صفحة 54- ميشلين سوفاج سقراط ).

يقول الراوي في الصفحة 107 " كان إدريس يحب دائما الرجوع إلى الأصل في الكلمة و الفعل .. أراد لعالمه أن يسود كان بالنسبة للآخرين مزعجا أحيانا مستفزا دائما (ص 107).

حقا لقد كان سقراط "الذبابة" التي تزعج الاتيينيين في نومهم الكسول، الذبابة التي تمنعهم من الراحة و الاطمئنان إلى حلولهم الأخلاقية و الاجتماعية الجاهزة التي اعتمدها في حياتهم .

فهو إذن عدو لكل الذين يعتقدون بالنظام القائم على السكينة البليدة دون النظر الى ما يطرأ في الحياة اليومية و العادية من أحداث تدعو للتساؤل و القلق.

بموازاة ذلك يتحرر البطل من الزمن ليعيش عمق اللحظة التي تختزل في كثافتها الماضي و الحاضر و المستقبل من خلال التجربة في الكتابة بدم فلسفي احترافي يزحزح البدايات و الآراء و القيم فيقول :

"إذا كان المجتمع فاسدا فوظيفة المدرس هي معالجة بعضه داخل قاعة الدرس على أساس أن يعالج هذا البعض ما تبقى من الوطن ، يربى الانسان في المدراس و الشوارع و المساجد و الجامعات من أجل أن يصلح باقي الفضاءات الأخرى ، لا خير في امة ينتصر فيها الجهل على العلم " .

" عرف إدريس من خلال هذه القصة أن قاعة الدرس السلمية مطالبة بإصلاح المجتمع الفاسد، أدرك أنه لم يكن يلحق لتلامذته أفكارا ونظرية سقطت من السماء دون مظلة، دخل قاعة الدرس قال لتلامذته :اعلموا أبنائي أنني لا أتحدث داخل القسم عن عوالم خيالية و لا أبتغي إنزال الكمال على أرض النقصان ما نقوله هنا حق و علم ، و ما يحدث في

الخارج رجس من عمل الجهل، نحن لا نحلم هنا، بل نتعلم ما يجب أن نعلمه للآخرين، كل واحد منكم مطالب أن يكون سقراطاً في بيته، دواره، قبيلته و كل التجمعات الأخرى التي تنبني في الفراغات، إذا لم تجدوا ما نقول في قاعة الدرس متجسداً في الحياة العامة، فهذا يعني أننا أمة ينتصر فيها الجهل على العلم و المعرفة، كونوا إذن واعين بمسئولياتكم اتجاه جزييرتكم ووطنكم اجهروا بالحق و حاربوا الجهل فيكم و في غيركم، مهمتكم و مهمتي إخراج أنفسنا و غيرنا من الكهف الإفلاطوني، كهف الجهل و الظلام الى نور المعرفة، اعلّموا أن الفرد المنعزل يصعب عليه الخروج حتى أنه قد يخاف عالم الأنوار بعد أن أحدث ألفة بينه و بين الظلام، اسحبوا أنفسكم و الناس جروهم إن اقتضى الأمر، لأن تجاوز الجهل يحتاج أحيانا بعض القسوة الرحيمة " (ص.36)

من جانب آخر يستعيد السارد :-المؤلف - دور سقراط في محاولة انقاذ أثينا على إثر مغامرة بركليس و اعلان الحرب ضد إسبرطة لمواجهة داريوس الفارسي لكن أثينا قتلت فيلسوفها بإعطائه السم بعد أن وجهت إليه تهمة إفساد الشباب حسب صك الاتهام التالي:

"أتهم و تحت قداسة القسم "سقراط بن سوفونيسك" من مقاطعة "ألو بيس" للإرتكابه الجرائم بحق الآلهة بعدم اعترافه بهم إنه يدعو الى آلهة جديدة مكونا بذلك خطر عظيما على الجيل الصاعد إن العقاب الذي أطالب به هو الموت ."

فالمؤلف أو السارد في تماهيه مع دور سقراط بوصفه ضوء الحرية المنبثق من اليونان أصلا و المنتهي في الغرب، "سقراط الفيلسوف الذي أنزل الفلسفة من السماء الى الأرض" على حد تعبير الفيلسوف الروائي شيشرون فالفيلسوف هو الذي ينبه الناس و يوقظهم و يبيت فيهم و روح الفكر النقدي و حب الحقيقة و إن أدى ذلك الى الدخول في مناطق محظورة

- حيث يقول في الصفحة 34: "عندما نستشير أناسا يؤمنون بالخرافة و الأساطير، أناسا حماسين متعصبين، يجب أن ندرك أن استشارتهم لن توصل غالبا إلا الى الجحيم".

-و يضيف في الصفحة 35 " ...أصبح سقراط لعنة يجب التخلص منها أهدمت أثينا العقل فيها، لكن ما الذي فعله هذا الفيلسوف فعلا؟ لقد أدرك جهل الناس و عجزهم عن تحكيم العقل في قضاياهم، أراد أن ينتقل بهم من الجهل الى عالم العلم و المعرفة، حيث يتمكنون من الاختيار بين الإمكانيات الممكنة بالعقل لا بالحماسة المبنية على العاطفة و الوجدان، عرف سقراط أن ديمقراطية بركليس غير مؤسسة فصرخ عاليا من أجل الوطن الذي يحبه أثينا".

فلا أحد شرير بطبعه كما يقول سقراط و الأفعال الشريرة منبعها "إما الجهل و إما الضعف و إما كلاهما معا"

لا أحد يريد الشر لذاته، عندما يختار انسان ما الشر فهو في الحقيقة يخطيء في الحكم، فالشر إذن خطأ يتموقع في مجال المعرفة لا الإرادة و العدو الأكبر للمعرفة هو الإفراط

في حب الذات الذي يجعل المرء يعتقد جهله حكمة و أن إمكانية التخلص من الشر يتم عن طريق درس الفلسفة و طلب الحكمة .

و نجد أصدااء هذه الفلسفة في الحوار الداخلي التي يجريها البطل إدريس في النص الروائي

"...عرف إدريس أن مهمته مصالحة كل لغات الوطن ... "كان همه الأساس هو ربط الشرق بالغرب و الشمال بالجنوب ، فقد أراد خياطة رقع الوطن بخيوط فلسفية زاهية الألوان ليكن التسامح اخضر و الكرامة حمراء و الحرية بلون السماء و الاحترام بلون الأرض (ص 32)

"..تساءل إدريس :إيكن لأبناء أو سلالة الحاج موحى دراسة الفلسفة؟أيمكن ان تكون هناك الفة بينهم و بين الكرامة والحرية و عزة النفس؟أيمكن أن نربيهم على فعل الخير عوض التزوير في دفاتر و كنانيش الوطن ،و العبث بعدد المواطنين في جزيرة الذكور (ص44).

"...كيف شرعن موحى موت الطفلتين؟خاصة في زمن الشرع هذا الذي تشابكت فيه اللحي لتمنع الشر عن الوطن".

"..غالبا ما يكون موحى مبدعا في الشر ،يفكر الاخرون نيابة عنه يستشرون عوضا عنه .."(ص83)

"..كان الحاج موحى كلما أتى الرديلة أو أراد الاقبال عليها ،يجلس ،يقترب أكثر ،يهمس أكثر ،خائفا...يلبس موحى الجهل يضع كفه في كفه الأخرى ،يفركهما حتى يسقط منهما بعض الدنس ،ثم يطلب الحل لمعضلته و يلح على أن كل شيء يجب أن يكون قانونيا .."(ص 84).

"...موحى بالنسبة لإدريس إنسان مريض يجب أن يعالج ما أراده إدريس هو اشراق الفلسفة (ص89).

و في بيانه لمراحل العلاج يقول الراوي " ...يبدأ درس إدريس لموحى بالتهديد ،يجب أن يحس بالضعف و بالمرض ،كما يحس التالميذ بالجهل قبل تعلمهم ،قامت الخطوة الأولى على الاستفزاز ...لأن موحى المريض سيتسول الد واء من الحكمة التي تعتبر أختا لشريعة ...لابد من وضعه في الماء حتى يمكن تشريحه و استئصال منابع الشر بداخله ..."(ص 90)

"...حول إدريس جزيرة الذكور الى قاعة لدرس في كل مكان ...كان مستفزا فهو لا يبحث عن المعرفة ،بل يحاول استخراج الجهل من ذات المحاور و من ذاته أيضا ،يجب على كل متعلم أن يدرك الجهل في ذاته حتى يحب و يستمتع بالمعرفة ..."

على ضوء ما تقدم يصح القول إن الزمن الحاضر لا يفي برغبة المؤلف في تجسيد حلمه على أرض الواقع لضغط سياسي و اجتماعي و ثقافي ..فإن الماضي يبدو مساحة خصبة للبحث على النقاط التاريخية المضيئة المجسدة بالشخصيات التاريخية سقراط أفلاطون -ابن رشد ..كتعويض عن غياب البطل.

لكن الا يبدو أن هذا الحلم بدوره له موقع في البنية النفسية للنص موقع اللاوعي أو البنية الجدرية للغة بالتعبير اللاكاني فالحلم حسب هذا الأخير يكمن في بنية الجملة اللغوية "

" مازال يحلم بانتصار العلم على الجهل " (ص 93) .

بل إنه حسب التعبير الحرفي فرويد "كل واحد يحلم داخل لغته " .

يقول الراوي :-"قال إدريس :وددت لتوضأنا بماء النهر معا وصلينا لأحلامنا على هذا البحر: هي الأماكن وحدها تسمح بالإستحضار يا علي جوزيف اللعين هذا يحييني ،ينتشلني بأصابع نارية ثم يحولني حمما ثائرة في كل الفراغات ،أنا الآن أشعر بالحر و ضيق المكان و الكثير من الحصار " (صفحة 30).

ويقول الراوي " قال إدريس فعلت كل ما فعلت من اجل أن أقرب أكثر، لكنني لم استطع أن أحلم باللغة الامازيغية رغم كل أدوات الانفتاح التي مازلت أحملها وأحن الى قبيلتي .."

على هذا الأساس و لإجراء مقارنة نفسية للنص الروائي في وحدته الموضوعية كذات مستقلة يتعين مساءلة اللاوعي القائم ،و في اللغة الصامتة التي هي الكتابة الروائية .

يفيض النص الروائي بالإشارة الى إحياءات الجنس و الخمرة باعتبارهما مرتعا لإقبار أو هام الحياة .

" قال إدريس و أنا ارعى الغنم و الماعز أحيانا كنت أتألم لحالها و هي تخدش بسيقانها النباتات الشوكية الجافة ،لتأكل الحياة القليلة بداخلها ،كنت ارغب لو أخبرت الماعز التي تجري في كل مكان أنه لأشيء يستحق الجري ،هو السراب أيتها الكائنات فلا تتخدعي ،لم تعد الذكور قوية كفاية لتخصيب

الإناث ،و لم يسمح ضعف العنزات بتحمل وجع الولادة ،هي الآن بدون أثناء للرضاعة و لا رحم قوي للحمل ،جفاف في كل شيء في البحيرة السد و السواقي و أثناء الماعز و الغنم ..) ص 66 .

ويقول السارد في مقطع آخر: (...كان إدريس مطالباً بمحاربة الغش في فضاء كله غش ،يراقب التلاميذ و تلميذات البكالوريا لاحظ أن كل الإناث أصبحن محتجبات يوم الامتحان ،أمر طبيعي فالامتحان ذكر و على الإناث في جزيرة الذكور إخفاء مفاتهن أمام الذكر .(ص 69) .

"..و يقول في مقطع آخر: (تسلت العروس هذه موردة الخدود ،لون التراب زهري ،و الأشجار كالمراهقات شامخات ،صخور عالية صلبة شاهدت الكثير و ترغب في الحكى ... (ص 20)

"...خرج إدريس بمعيته أستاذ اللغة الفرنسية لم يكن شريكه في البيت ،لكنه أحيانا كان يحلل الحرام كان عكس أساتذة اللغة العربية الذين يحرمون حتى الحلال .. (ص54)

لم يستطيع جوزيف تجنيدهم ،هم يأكلون و ينامون و يحلمون كثيرا بمداعبة نهود القاصرات ،و عندما يشتد الحر يفتحون النوافذ و يلبسون العباءات ثم يتحول الاول الى فاعل و الاخر الى نائب الفاعل (ص 54).

..يقول في : (الصفحة 9) سأله حسن عن سبب الدماء على جبينه فأجابه ضاحكا :كنت أتعرف على الغرفة فلامست جدارها الالزرق مرت يدي على الزرقة كأنها بحر من من نهود الصبايا ،بالغت في اللمس حتى ظن الباب أنني أغازله (ص10).

عبر هذه المقاطع لا يعرف من أين يبدأ فيها الاستشهاد و المناجاة ،التذكر ،أو المونولوج و لا أين ينتهي، بقدر ما يكون الحي مشدودا الى ضمير المتكلم بقدر ما يكون موزعا بين ازمنة الحياة و ازمنة الموت .

و هذا ما يزكيه التحليل النفسي حين يرى في الأدب أداة لمواجهة الموت ،يقول فوريد "يمكننا عالم الأدب من رسم شخصيات لا تخشى الموت ،و تعرف كيف تختار المنية التي تناسبها و أخرى لا تخشى الموت ،بل تختاره لغيرها " و يقول نيتشه "...حذار أن تقول إن الموت مضاد للحياة

في خضم سياق النص استحضر هنا الصورة العامة للخمرة في هذه الرواية خارج كل أشكال التنميط الدينية و قيم الدهماء يشيد المؤلف من خلال البطل إدريس ،عالما للمتعة بخرق الممنوع المؤدي الى الموت فاللذة هي الخمرة، و الخمرة هي الرغبة و الرغبة هي الموت (...اجتمعت الفلسفة و اللغة العربية في منزل امازيغي ،كانت نوافذه تطل مباشرة على دكان جوزيف اليهودي ابن سعدة الذي يبيع ماء الحياة للأموات من الناس ... (ص 11) .

"..ادرسى الآن هنا - ماء حياة جوزيف يحاول جاهدا إسعافه من البرد و الطرد من الت شظي"

".....لا شيء يقهر الرجل في وطني حتى شرب حمم جوزيف المتقدة ،هي رشفة من جهنم كي نحيا إذن ،لكن ما الحياة ؟ قال: إدريس أصبحت شفتاي تعشق قبلة النار الجوزيفية هذه ،كان جميل جدا ان تحس بمسار الجحيم حتى استوائه في القعر ( ص 12 ) .

وهكذا نجد ان رؤية فرويد للرواية السيكولوجية تقوم على نزوع المؤلف الحديث الى تجزئة اناه بواسطة الملاحظة الذاتية الى انات جزئية مما يقوده الى تشخيص مختلف التيارات التي تتصادم في حياته النفسية في أبطال (إدريس- علي - موحى)الذين ليس لهم وجود فعلي و لا حياة حقيقية و إنما من خلال ما يمثلونه من امتداد لذاته ..لأحلامه و هواجسه لنوازعه و طموحاته .

فادريس هو الفكر الواعي هو صوت الحكمة حيث تتصارع النزعات ،وهذه الشخصيات فيما بينها ،كما تتصارع النزعات و الرغبات المتعددة في ذات المؤلف في كل ما هو ظاهر نزولا الى أغواره و سراديبه التي لا ترى .

تيمة أخرى تضيء النص الروائي وهي ذات حمولة فكرية بنفسها الشعري من خلال التكتيف اللغوي .

"يتذكر إدريس و يقول :ما أعجبني في الحياة هو ترنحي و عدم هيمنة بعضي على بعضي الآخر ،لقد صرت مملكة للحرية ،تحررت نفسي من نفسي ثم تقيئت حياة جوزيف ،أو ما تبقى منها مع البعض القليل من أحشائي ،ثمل إدريس الآن ،أمسك رأسه بما تبقى من يديه، عصبه ثم وضع القليل من الملح في فمه حتى ل يتقيأ أحلامه و نام ( ص 13) .

فثراء النص الروائي ينبع أساسا من ثقافة المؤلف و إلمامه بالتيمة التي يقاربها سواء كانت تيمة الموت ،أو غيرها..

"...فمن منا يجرؤ على النظر الى وجهه في المرأة على نحو ما يفعله المؤلف بكل شراسة و قسوة" ..يمر الزمن سريعا تتراكم الأحداث ،و إدريس لم يصدق بعد أنه أستاذ لم يستوعب أنه أخيرا خرج من البطالة عالم التسول ، كلما نظر الى نفسه في المرأة و بحث عن الأستاذ بداخله ،لا يجد الا إدريس بن ايدار الكدميوي ،بحث في كل الخبايا و تفحص كل الفراغات عشر على أشياء كثيرة منها ما هو مهم ومنها ما هو مخجل ،لكنه لم يجد صورة للأستاذ. ترك المرأة مخافة ان تبتلعه نفسه ،وضع بعض العطر ثبت كل أعضائه في مكانها ،ثم قصد قاعة الدرس حيث يتسول الناس معاني الكلام "(ص23)". ..دخل إدريس البحر ،سبح عميقا لكنه لم يعد أبدا "(ص 27).

و اللافت أن الرواية تتضمن في الصفحة (100).يتضمن تداخل شخصية الراوي بشخصية إدريس البطل ".لماذا هذا الحقد و الغضب من إدريس تجاه موحى الحاج ،الأرض مليئة بهذه الأنواع من أشباه الناس ،يوجدون في البر و البحر وأحيانا حتى في السماء ، يوجدون لا يستحيون ثم يستمرون في الحديث ،سمع إدريس بحيث الراوي ، و قال :كل مقاربة للقرف على هذا النحو هي محاولة لتشريع الجهل على العلم و الفوضى على النظام و العنف على الحوار و موحى الحاج على الحق .

"...يظهر أن مرافقة الغنم تزهو حكمة و نبوة ،و مرافقة موغا بائع الناس للناس تثمر موحى و موحى الحاج و الحاج موحى(ص 102) .

"...هل نرافق الغنم و نترك الناس ؟ هكذا سأل أحد المستمعين إدريس فأجاب :مرافقة الناس مشروطة أولا ،بمرافقة الغنم " (صفحة 102).

"...الصامت عن الحق شيطان اخرس، و أنا لا أرى شيطاناً في هذه الدائرة فأجروا على القول لا تتركوا كلمات الحق تموت في حناجركم، لا خوف الا من الله و من لا يخاف الله .(صفحة 105).

من خلال هذه المقاربة يتضح ان المؤلف ترك لمخيلة القارئ حيزاً لإتمام مخيلته هو، فجعل من هذه الرواية مدخلاً لملامسة جوهر الإشكالية الوجودية من خلال دمج الشعر بالفلسفة في محاولة إدراك لجوهر الإشكالية الوجودية .

و في الختام أقدم للقارئ إعادة تقسيم للقول الشعري الوارد في اسفل الصفحة (ص 30).

- و رب البحر

و الصخر و النهر

لأستقيمن عودا في صلب الزمن

هذه الأماكن أثر

يوحي بالبكاء و الحكي .

و رب الليل و الفجر

ما أنا كما أردت

و إنما كنت ،

قلله الأمر فيما أراد

و ما صرت

هي الأماكن ، إذن

وجع الذكرى

و انفلات الزمن

يا علي ..

سلام بكوري

غشت 2018

### المراجع :

- محاكمة سقراط: جون بران-

النجود الأف :جيل دولوز - فيليكس غاتاري.